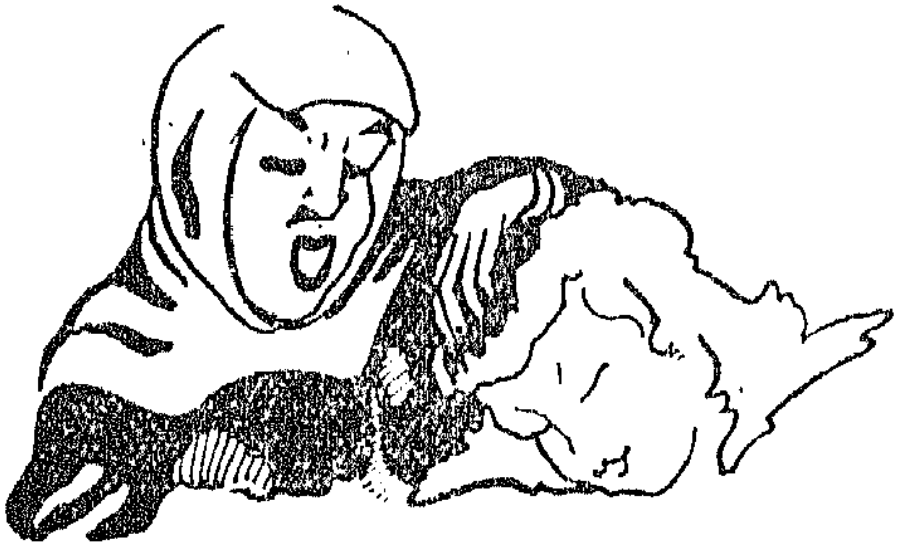

وبدأت المجوز قصتها بصوتها الناعم الرقيق ، فهدأ الجمع الذى كان يطن كأنه خلية النحل . وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

حديث جيد ..

obeikandl.com

طه

يوم الخميس من أحب الأيام إلى نفسه . . فقد كان هو اليوم الذى يشعر فيه أنه حر طليق يرتع كما يشاء . . بل وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيداً إلى مكتبه طول أيام الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزى كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد !

وكان يوم الخميس ممتعاً حتى فى حصصه . . فقد كانت الحصتان الأولتان « إنشاء » والثانيتان « رسم » ، ولم يكن هناك أحب إلى نفسه من الإنشاء العربى والرسم . . فقد كان بارعاً فى كليهما ، وكان مدرسا العربى والرسم حبيبين إلى نفسه ، إذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سميناً أبيض اللون خفيف الدم . . فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسروراً .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذناً بانتهاء الحصة الرابعة ، حتى يسرع الصبى إلى بيته ، فيقذف بكتبه . . ثم ينطلق إلى بيت « جده » .

وكان بيت « الجد » هذا هو أحب أماكن النزهة إلى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به

بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! . . الحرية المطلقة التى لا يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبى يجد نفسه مطلق الصراح . . يلعب كما يشاء . . ويأكل مايشاء ، ووقتما شاء . . كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن من المستطاع توسيخها أكثر مما كانت) . . وكان يستطيع « الشقلبة » كما شاء دون أن يتهمه أحد « بالشقاوة » و « العفرتة » . . كان يشعر أن بيت جده ملىء بالحركة والحياة من كثرة مابه من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » . . والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعاً خصباً لمرحهم ولهوهم .

وأخيراً . . وهو أهم مافى الأمر . . كان الصبى يجد فى البيت جدّته العجوز التى كانت تخصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص . . براعتها فى كل شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة . . وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش . .

لا تستطيع النهوض . . ولا تقدر أن تقف على ساقيها .

كانت الجدّة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزاً ككل العجائز فقد كان كل ما فيها محبباً إلى النفس مقرباً إلى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة . . طيبة القلب بلا حمق ولا بله . . سديدة الرأى بلا مكر ولا دهاء . . معتـــدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى . . بجسدها الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئاً ساكناً ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد أخفى بمنديل أبيض ، ويداها النحيلتان المعروقتان ، قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئاً ناعماً . . وقد التف حولها الصبية يلحون عليها أن « تحكى حدوته » . . وتبدأ قصتها فإذا بالسكون يسودهم وكأن على رؤوسهم الطير . . . ويشرئبون بأعناقهم إليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ، ويستمرون هكذا فى سكوتهم ساعات طوالا وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنة حتى تنتهى القصـة فيتمطون ويتثاءبون ويذهبون للعشاء والنوم ورؤوسهم ملآى بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة . . خضراء العينين دهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الأطوار شاذة الخلق . إذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثر ، وكانت من فرط إحساسها يخيل إلى الناس أنها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم إنساناً كان أو حيواناً وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحداً يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضآلتها وحقارتها ، وكان أكثر مايبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة إلى قلب الصبى ، انطلق كعادته إلى بيت جده . . فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلال ونال منهم التعب . . فتسللوا إلى الدار الفسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمة ، والتفوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم إحدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ،

تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم إلى الجلوس حول فراش العجوز ، وأشدهم إنصاتاً وأكثرهم لهفة وتشوقاً .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهدأ الجمع الذى كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم إلى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

ـ فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان . . كان يحكم الدنيا ملكان من ملوك الإنس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعان السلطان ، ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تنطفىء لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراع والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وإبعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة . . لاتعصف بها الحروب ، ولايقض مضاجعها الخوف والفزع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة

إلى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام . . فاستصوب رأى الحكيم . . ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل إلى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم فى الوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصدهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراءه واحتقاره ، وطردهم شر طردة ، وعاد الرسل يجرون أذيال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا إلى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى إهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها إلا الدماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه . . وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه إرباً إرباً ، وأن يعذبه عذاباً لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير إلى خصمه جيشاً لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملأ الحقد قلبه ، إذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواه ، وكان يتحرق شوقاً للثأر لكرامته المهدورة ،

والانتقام ممن احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لاتبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على مالحقه من إهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة . . .

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم أيدى سبا . . وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدى الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ماحل بأهلها من نوازل وكوارث ، ومالارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب . . فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير أن الأميرة تستحق ماسفك لأجلها من دماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح . . فقد كانت رائعة الحسن فاتنة ساحرة . . حتى أحس الأمير أن الأسيرة على وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه ناهية آمرة ! !

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول أن يستميل الأميرة إليه ، ولكن قلبها كان مليئاً بكراهيته ، وحاول

استرضاءها برفعها من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروماً من حب الفتاة التى جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه ويعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداده ووجه جيشاً هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ فى تحصين مدينته . . فلم يكد يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت فى مقاومتها الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئاً . وكانت الأميرة تتلهف على نجاح أبيها فى هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير وقومه كما نكلوا به من قبل . وبدأ اليأس يدب فى قلبها عندما رأت أباها يفشل فى اقتحام المدينة . وصممت على أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أباها فى هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له

وأحس أن بغضها قد أضحى حباً ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه . . واستدرجته الأميرة . . فوثق بها ولم يتوان عن أن يفضى إليها بكل ماعنده .

وفى جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت فى زى أحد الجنود وذهبت إلى معسكر أبيها فباحت له بأسرار الأمير ، ولم يمض يومان على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدها العدو حصداً .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه فى قبو مظلم رطيب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير فى كل ماحدث له إلا خيانة الأميرة . . فقد كان حبها مازال عالقاً فى فؤاده ، وكان يمزق قلبه أن ما أظهرته له من حب لم يكن إلا لخديعته والإيقاع به .

ورأت الأميرة مافعله أبوها وجيشه بقوم الأمير . . فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلباً . . فقد انتقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم إلا عظاماً نخرة وحطاماً بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير . . وشعرت أنه لم يرتكب ماارتكب إلا من أجلها ، وأنه

كان كريماً معها ، وبدأ حبه يتسلل إلى قلبها يوماً بعد يوم . حتى شعرت أخيراً أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتنكرت الأميرة فى زى خادمة وحملت معها إناء به خمر وتسللت إليه تبغى زيارته فى قبوه وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطى الإناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه ، ولكنها أسرت إليه بندمها واعترفت له بحبها . . فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيناً فى القبو من أن يعيش بدونها طليقاً فى قصره ومملكته ، وشغلهما الهوى برهة . . ثم أفاقا على صوت أقدام الحارس تقترب . . فانهمكت فى ملء الكأس للأمير . . وأعطتها له فجرعها فى لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريباً ، وتوهم حرارة فى جوفه . . فظن بالشراب سماً ، وبدأ الوهم يتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم فى نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز فجأة وأمسك بعنقها فى قبضة يده وصاح بها :

— لِمَ تصرين على تعذيبى وقتلى . . أنا الذى أحببتك حباً لم يحبه إنسان من قبل . . أنا لا أخشى الموت ، ولكنى

يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب فى الذهاب إلى الحياة الأخرى بدونك !

وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لا تخدعه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته إياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لا حراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشاؤه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئاً ، والأمير يحس أنه مازال حياً ، وأخيراً بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تدس له السم ، وأنه قتلها ظلماً وعدواناً .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

* * *

ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز . . فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم ، وانقلب السكون ضجيجاً وصخباً واندفعوا يتسابقون إلى الطعام كأنهم لم يذوقوا للأكل مذ خلقوا طعماً .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فإذا بالصبية النحيلة مازالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجرة مع الجمع الصاخب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات . . تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسمات وجهها . . وسألتها الجدة فى رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطعه البكاء :

— لِمَ قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

وضحكت الجدّة وربتت على ظهر الفتاة . . ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

— يا حبيبتى إنها قصة . . فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجومها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين . . واستمر الأسى يملأ قلبها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ،

وسأل عنها فانباوه أنها لم تحضر لأنها مريضة . . ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبى أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامساً أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبى عمه (والد الصبية المريضة) ، قد حضر إلى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتاً .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها إلى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابهما .

وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها إلى حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبي دهشاً من كل ماحدث . . لا يكاد يدرى سبباً لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر بجدته قد تمددت فى فراش الصبية ، وقد ضمتها إلى صدرها بإحدى يديها .

وسمع صوت الصبية يهذى بكلمات متقطعة ، ثم سمع صوت الجدة تدللها بكلمات ملؤها الرقة والحنان . وتقول « يا حبيبتى .. ألا تدرين ما حدث للأميرة والأمير ؟ »

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

ــ لقد أفاق الأمير ، فعلم أن السيف لم يقتله بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجدته وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته . . وساء الأمير أن وجد نفسه حياً ، فقد كان لا يرغب فى الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضاً لم تمت ، إذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا إنقاذها .. فملأ الفرح قلبه . . ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها . . وخشى أكثر من ذلك أن تكون قد عادت إلى بغضه وكراهيته بعد ما فعله بها . . وعصفت به الهواجس فعاد إلى إغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب إلى قلبه . . فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها . . وأبلغته الأميرة أن أباها قد عفا عنه وأطلق سراحه ، وأنه حر فى أن يعود إلى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، وأخبرها أنه لا يريد حريته ولا مملكته ، ولكنه يريدها هى . . فأخبرته أنها هى أيضاً ملك يديه يفعل بها مايشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة « وعاشوا فى الثبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات » .

وظهر الهدوء على الصبية المريضة وكفت عن الهذيان واستمرت الجدة تدللها حتى راحت فى سبات عميق .

وعند ما عاد الصبى فى الخميس التالى ، وجد الصبية فى وسط الجمع ، وهى تضحك فى غبطة ومرح . . وكان أول ما قالت له :

— ألا تدرى ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبى وقال :

— نعم أعرف . . لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبي ، وسألته من أخبرك ؟

وضحك الصبي مرة أخرى وأجاب :

ـ أخبرني الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبي أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة إلا وقد تزوج البطلان في النهاية .

obeikandl.com